

أسلوب التفكير في الأزهر

ومنزلة من تطور الفكر البشري

بقلم الاستاذ أحمد توفيق عياد

المدرس باليسية فرانسه

استعرضنا في المقالين السابقين^(١) أهم المدارس التي نشأت في الغرب ، وكان لها أثر إما أثر في تطور الفكر الأوروبي ، واثبتنا من الكلام عن الأفلاطونية الحديثة وأثرها في العرب بوجه عام ، وأثرها في التصوف الاسلامي بوجه خاص ؛ وبعد الأفلاطونية الحديثة لم يظهر في أوروبا تفكير مجدد ، وتولاها على العموم عصر مظلم ليس فيه مجال للبحث والتفكير العميق ، إلى أن أنشأ (شربلمان) مدارس تتابع الرجوع إلى الفلسفة اليونانية ؛ ولهذا المدارس تنسب تسمية العصر بالمدرسي . وبينما كانت أوروبا في غيابة هذا الظلام الدامس إلا أن القرون الوسطى ، كانت العرب في أرقى عصر من عصورها الذهبية ؛ فبعد اختلاطهم بالأمم المختلفة ذات الحضارة والنظم السياسية والادارية في الشام والعراق ومصر - ولاسيما بدخولهم في الأندلس واستقرارهم فيها - أخذوا في الاهتمام والعناية بالعلوم الفلسفية وسائر العلوم : من طب ، وفلك ، ورياضة ، وتاريخ ، وأدب ؛ وقلوا أكثر الكتب المعروفة لديهم فيها ؛ ولم يقف عملهم عند حد النقل ، بل بدأ العقل العربي بكل تطور الفكر الانساني ؛ او مترج الدين بالفلسفة كثيراً ، وظهر كثير من الأفاضال الذين على عقولهم تنقل هذا التطور « كالكندي » وهو أسبق فلاسفة المسلمين ، وهو عربي الأصل دون سواه من فلاسفة العرب ، ويليه « أبو نصر الفارابي » و« ابن سينا » و« الغزالي » وهو إمام التصوف . وظهر منهم في الأندلس « المجريطلي » و« ابن باجة » و« ابن رشد » وغيرهم ؛ وقد ألفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة والعلوم ، مما اتخذه الغربيون أساساً لفلسفتهم في أوائل نهضتهم ، وظل العرب كذلك قروناً في نهضتهم هذه ، وانتقل إليهم علم اليونان وعلم القرس وغيرهم ، حتى أتى عصر النهضة وإحياء العلوم ، فاستمد الغربيون حلهم وفلسفتهم من العرب الذين أخذوا من ذلك الوقت - الذي بدأ الغرب فيه يفتش -

في التأخر والاضمحلال ، وصار شأن التفكير عند الأمة الإسلامية - في عصور الاضمحلال هذه، منذ أواخر القرن الثامن الهجري إلى قبيل عصرنا الحاضر - شأن التفكير عند الغربيين طوال القرون الوسطى ، وأصبح منذ ذلك الوقت يمتاز الأزهر وغيره من المدارس الإسلامية بما كانت تمتاز به القرون الوسطى عند الغربيين من مميزات ؛ فكان التعليم في الغالب دينياً خاضعاً لكل الخضوع للآراء والمعتقدات الدينية ، وكان التعليم لفظياً كله وليس للعقل فيه نصيب ، لأن التلميذ كان مضطراً إلى قبول ما يعرض عليه كأنه قضيته مسلم بها، فهو وتعليم تحكي لاجبال فيه لتتقد وإعمال الفكر ، وعود الناس الميل إلى الأمور الجردة المعنوية ، والاستدلال الشكوى العميق من مقدمات مفروض عدم التفكير فيها وتمحيصها ؛ والتفكير كان استقباطياً كله أساسه القياس المنطقي ، والاعتداد على الحفظ والاستظهار ، لا على الملاحظة والمشاهدة ؛ وأوضح خصائص هذا العصر عند الغربيين إخضاع الفلسفة للاهوت ولم يكن الدين والفلسفة طريقتين يوصلان إلى الحق ؛ فالفلسفة هي الدين والدين هو الفلسفة ؛ وكانت وظائف المشتغلين بالفلسفة هي الشرح والتعليق والتعليل للفلسفة القديمة أو لآراء الدين ، ولم تكن هناك حرية في البحث لقوة السلطة الدينية التي عملت على تحديد سلامة العقل بحدود الدين ، فما أقره الدين لا يفكر فيه العقل أو يسلم به ، وكل هذه الخصائص ، هي يمينها خصائص الفلسفة الإسلامية ؛ فانه لما انحطت درجة الاشتغال بالعلوم الإسلامية وضعف شأنها ، وكان العلماء المتقدمون قد استرفوا الكلام فيها بمؤلفاتهم ومصنفاتهم المتعددة ، لم يجد العلماء المتأخرون لظهور فضلهم في التسييف وإقشار ذكرهم بالتأليف ؛ إلا أن يعدوا إلى ما بين أيديهم من المؤلفات والمصنفات ، فوضعوا عليها الشروح والتفاسير ، وجاء من بعدهم طبقة من أهل العلم دون طبقتهم أخذوا جذوهم وانحصرت هممتهم على شرح ما وضعوه من تلك الشروح وهي الحواشي ، ثم جاء من بعدهم كذلك من اشتغل بوضع الشروح على تلك وهي التقارير ، ثم غطى كل ذلك متون الكتب ، وأفاضل الآيات تحت القشور ، واستحكم التعقيد بذلك وتغلب الابهام ، فوفقت الأذهان في ارتباك ، والمقول في تشويش ، وتعدت النقاط الفوائد على الطلاب من وراء الاشتغال بها ؛ وساءت بذلك حالة التعليم ، وضاعت الأعمار والأوقات بغير مائل ، (١)

وكانت كل أبحاثهم دائرة حول الأمور الميتافيزيقية دون أن يكون لهم إلمام بالشؤون العلمية ، وكانوا بمنزل تام عن الحياة الواقعية وما يجري فيها ، وكانت حقائقهم شككية ؛ أما النتائج العلمية التي يصلون إليها بعد التجربة والبحث فلم يكونوا يعرفونها ؛ وكان تفكيرهم

(١) رسالة بريم عن الأزهر من ٥٠

محصوراً في دائرة واحدة ، يلف حولها ولا يتعداها ؛ وكان مجهودهم الفكري منصرفاً إلى مناقشات لفظية ، لا تؤدي إلى نتيجة عملية لها اتصال بالحياة أو بالعالم الخارجي ؛ وينتاقشون في الألفاظ والتعاريف مناقشة ملوثة من غير جدوى ، ومثريقتهم المتبعة هي الطريقة الحوارية بالسؤال والجواب ، لا لأجل التعليم الصحيح والتربية العقلية ، وإنما لجرد التلقين والاستظهار ؛ « ومن حفظ المتنون فقد حاز الفوزون » .

وكان القياس المنطقي الآلة الكبرى في المحاجة والجدال ، مقدماته المعتقدات الدينية الاستبدادية ؛ وبمجال تفكيرهم لم يكن مجال خلق وابتكار ، ولكنه تفكير في دائرة محدودة ؛ أو تفكير أشبه ما يكون بالشعوذة العقلية ، فالفلسفة والآداب لم تكن سوى وسيلة خلدعة لتلغيات الدينونة السائدة ؛ وكان الاهتمام منصرفاً إلى الجدال نفسه لا إلى النتيجة التي قد تؤدي إليها المقدمات ؛ فالنغاية هي الاقناع وإلزام الخصم بالحجة ، لا الوصول إلى الحقيقة .

هذه هي الحالة العقلية التي كان يشترك الشرق فيها في عصور اضمحلاله - وما زلنا نشي تحت وطأتها - مع الغرب في عصر القرون الوسطى . ولقد جذبت عوامل كثيرة في الغرب حملتهم على الخلاس من هذا الجمود العقلي ، وانتهجوا لذلك سبيلاً لا بد أن نسير وراءه إذ أردنا أن نتخلص من هذه العبودية الفكرية التي نرتطم فيها ؛ ووسيلة النجاة تتأخص في شيء واحد ، هو تغيير أسلوب التفكير في الأزهر ، وتكوينه التكويني العلمي الحديث ، وسلوكه طريق البحث العلمي الحديث في تفكيره ؛ وهذا ما وصل إليه الغربيون بعد جهاد طويل دام قروناً ، ضمن لهم التوفيق في النهاية وحرية الفكر ، وسداد الرأي .

فإذا استطاع الفكر الأزهرى ألا يبتق في شيء من غير اختبار على ضوء المنطق الصحيح ، وألا يتقبل حقيقة من الحقائق دون أن يوزنها بميزان المنطق ، وإذا استطاع أن يتخطا من الأغلط والأوهام التي يمرض لها الفكر بطبيعته بسبب الوراثية ، أو بسبب التكوين الطبيعي للفرد ، أو بسبب اللغة وأصليها ، وإذا استطاع أن يكون جريئاً يهجم على الآراء والمقائيد يبحث فيها ويهضمها ويمثلها دون أن يتردد في ذلك من غير ما مبرر ، وإذا استطاع أن يشك في كل شيء حتى في أمس الأمور بمقائده وآرائه ونزواته الموروثة ، ليسل من وراء هذا الشك إلى يقين ثابت يدعمه المنطق الصحيح ، وإيمان وطيد لا يأتيه الباطل ؛ دون أن يخاف الزيف والزلل في شجاعته هذه ، وإذا استطاع أن ينهج هذه السبيل في دراسته للأشياء ، وفي تمحيصه للحقائق ، وذلك بجمع الوقائع المتعلقة بالموضوع بما يرتبها ويؤيدها ، ثم يتناولها وانظمة واقعة بالبحث والتحريص والدحض ، ثم يستنتج منها ما يهديه إليه عقله وتكبيره... إذا استطاع الفكر الأزهرى هذا ، انتقل الأزهر من صبغته القديمة التي تجعله إلى القرون الوسطى أقرب [البقية على الصفحة ١٢١٦]